الفصل الرابع

تنظيم القسام

رضوى عبد القادر

ثمة أسئلة مشروعة تفرض نفسها هنا، لماذا اختار القسام صيغة التنظيم السرى، بينما صيغة التنظيم العلنى متاحة من قبل سلطات الانتداب البريطانى؟! لم يكن اختيار الصيغة السرية ترفًا، بل عمدًا إجباريًّا لكل من يتطلع لمجابهة الاستعمار والصهيونية، أما شكل الكفاح الرئيسى للتنظيم السرى فهو الكفاح المسلح.

لكن ما العمل والقيادة التقليدية للحركة الوطنية تهيمن على جماهير العمال والفلاحين وتكبِّلهم تلك القيادة بأساليب «كفاح» عقيمة ، لا تتعدى المذكرة، والمؤتمر، والوفد المسيَّر حينًا إلى حكومة لندن، وأحيانًا إلى المندوب السامى البريطانى فى القدس. لم يكن سوى طريق الدعوة والفكر، فضلًا على أن ما كان يقترفه الانتداب أو الصهيونية يضعف خط القيادة التقليدية ولصالح خط القسام.

بالدعوة والفكر تم خلق رأى عام، وفى القلب منه تيار يقف بقوة مع الكفاح المسلح، الذى تمارسه طليعة، بمثابة البدر الذى يتخذ من ذاك التيار هالة له.

بعد ذلك جاءت خطوة انتقاء عضو التنظيم السرى، وإعداده فكريًّا وعسكريًّا. وأخيرًا تبقى الطريقة التى بدأ بها ذلك التنظيم.

القسام اسم استحق أن يخلِّده التاريخ، استطاع فى فترة غير طويلة أن يصنع حركة، أو تنظيمًا، بخطوط سياسية، وعسكرية، ونضالية لافتة، بمعايير ذلك الزمان. وحاز هذا التنظيم على إجماع وطنى، واعتبر هذا الإجماع إنجازًا سياسيًّا، لا يتكرر كثيرًا، فى تنظيمات أُخرى. أما صانع هذا الإنجاز، فهو عز الدين عبد القادر مصطفى القسام.

نشأته

ولد عز الدين القسام فى بلدة جبلة، قضاء اللاذقية، بسوريا ، عام ١٨٨٢، ونشأ فى بيت علم وأدب. رحل وهو فى الرابعة عشرة من عمره، برفقة أخيه، فخر الدين، إلى القاهرة، حيث تلقى تعليمة بالأزهر الشريف، بعد دراسته العلوم الابتدائية، فى جبلة، وذُكِر أنه ممن «درسوا على يد الشيخ محمد عبده»[١].

رجع القسام إلى بلده، بعد سنوات عديدة (١٩٠٣)، وعمل هناك بالتدريس والوعظ فى جامع السلطان إبراهيم بن أدهم. ولم يكتف بنشر العلم، بل شارك فى حركة الجهاد، فانضم إلى عصبة عمر البيطار فى جبل صهيون، ثم اشترك مع صالح العلى، فى ثورته ضد الفرنسيين، حتى حُكم على القسام بالإعدام، من قبل محكمة عسكرية للاحتلال الفرنسى، فأفلت مع رفيقيه، الشيخين محمد الحنفى، وعلى الحاج عبيد، وقد اختاروا حيفا مقامًا لهم(١٩٢١)، تلك المدينة الساحلية الكبيرة، التى احتضنت الكثير من العرب، وقتئذٍ، وكانت سريعة النمو فى عمرانها، فهى مرفأ فلسطين الأول، وأقرب مدنها إلى لبنان، ودمشق، وهى بلدة متعددة الأقوام، والجنسيات، فضلًا على أنها قاعدة من قواعد التهويد، مما أسبغ عليها حساسية خاصة[٢].

فى حيفا

وجد الشيخ القسام أن الحال فى فلسطين ليس أفضل من نظيره فى سوريا، بل يزيد فى فلسطين بالانتداب البريطانى، تلك الأطماع الصهيونية فى إنشاء «وطن قومي»، تساندها فى ذلك الإمبريالية البريطانية. فأدرك القسام أن الاستعمار وحدة لا تتجزأ، مهما تنوعت أشكاله، ولا بد من الأخذ فى الاعتبار الأخطاء السابقة فى الثورة السورية ضد الفرنسيين.

فى حيفا، اشتغل القسام بالتدريس، فى المدرسة الإسلامية، وبدأ فى رصد الواقع، ودراسة أوضاع الجماهير العربية فى فلسطين، مستفيدًا من العلم الذى حصَّله فى الأزهر، على أيدى العلماء المصريين، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده، الذى قام منهجه الفكرى على تمجيد العقل، ورفض السلطة الدينية، كما أن الشيخ القسام استوعب خبرات ودروس ثورة عشائر صهيون، والتى بيَّنت للقسام أنه لا يمكن إحراز النصر بدون[٣]:

- **وحدة إدارة الثورة.**
- **إقامة تنظيم ثورى محكم.**
- **تعبئة وتنظيم الجماهير.**
- **التخطيط العلمى فى العمل الثورى، سياسيًا وعسكريًا.**
- **الوضوح الفكرى، متمثلًا فى خطٍ سياسيٍ واضح وسليم، يحدد العدو والحليف، وطبيعة المرحلة، والهدف الإستراتيجى، والأهداف المرحلية، وأشكال النضال.**
- **نضج الظروف، والعمل على تهيئتها، لتفجير الثورة.**

أصبح ثمة ضرورة قصوى لإقامة تنظيم محكم، سرى، يقود الكفاح الوطنى ضد الانتداب البريطانى والحركة الصهيونية، فى آن واحد. إن فى التنظيم ضمان استمرار هذا الكفاح، وانتصاره، فالحماسة، وحدها، لا تكفى، ولا تصنع ثورة، تستطيع أن تكنس عدو الأمة المزدوج.

مرحلة الإعداد النفسى

بدأ شيخنا مرحلة الإعداد النفسى للثورة ضد الاستعمار منذ عام ١٩٢٢، وعمد إلى اختيار الكيفية دون الكمية. قال أحد رفاقه، وهو أبو إبراهيم الكبير (الشيخ خليل محمد عيسى): إنه كانت للشيخ «حلقات دروس يعلِّم فيها المسائل الدينية، ولكنه كان أكثر المشايخ تطرقًا لضرورة الجهاد، ولمنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها فى بناء وطن قومى على أرض فلسطين. كان يركز على الاستعمار البريطانى، وعلى الصهيونية. ولقد استجوبته السلطات الاستعمارية، لعدة مرات، ولما كانت شعبيته كبيرة، فإن الحكومة تجنبت اعتقاله. وكان من نتيجة وطنية الشيخ، ودعوته للجهاد أن التفَّت حوله جماعة من الرجال، دفعتهم الوطنية والإيمان»[٤].

تعددت المواقع الجماهيرية لدى القسام، التى أفاد منها، وتحرك من خلالها، بادئًا دعايته وتحريضه، منتقيًا العناصر الصالحة منها، لتجنيدها فى تنظيمه السرى، وهذه المواقع هي[٥]:

- **«المدرسة الإسلامية»**، حيث عمل مدرسًا بها.
- **«جمعية الشبان المسلمين»**، التى تألف فرعها فى حيفا عام ١٩٢٦، وانتُخب القسام رئيسًا لها عام ١٩٢٨. وقد كان انتسابه إلى هذه الجمعية، فى واقع الأمر، تغطيةً لأعماله السرية، وإعدادًا للثورة، بعد عدة سنوات، فكوَّن عصبة سرية، وشرطاها الأساسيان: أن يقتنى العضو السلاح على حسابه الخاص؛ وأن يتبرع بما يستطيعه لهذه العصبة. وكان بعض أعضاء هذه العصبة من أعضاء «جمعية الشبان المسلمين»، وبعضهم الآخر من خارج الجمعية.
- **«مسجد الاستقلال»** فى حيفا، حيث أفاد من وجود القسام فيه، كإمام وخطيب.
- **قرى شمال فلسطين**، حيث كان تعيينه مأذونًا شرعيًا لها فرصة لطالما وظَّفها القسام لصالح نشاطه السياسى.
- **التجمعات العمالية فى الشمال الفلسطينى.**

شخصية القسام

إلى تلك المواقع، اتصف القسام بالشخصية الجذَّابة، وحسن السيرة، والمعاشرة، فضلًا على أنه محدِّث لبق، وخطيب بارع، ومن أبرز مهاراته اتصاله بسائر طبقات الشعب، لا فرق عنده بين متدين وغيره، اعتقادًا منه أن إصلاح المستهترين أولى من إصلاح غيرهم، ويمكن للأمة الاستفادة منهم، بعد الإصلاح. وقد توفرت للقسام الفرصة، لدراسة نفسيات الجماهير، منذ أن عُيِّن مأذونًا شرعيًا لقرى شمال فلسطين، من قبل المحكمة الشرعية، منذ عام ١٩٢٩، واستمر يعمل، بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين، يهيئهم للانطلاق، فى الوقت المناسب نحو الثورة، مهتديًا بقول الرسول الكريم(ﷺ): «واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان». كما أخذ القسام يبث روح الوطنية فى النفوس، داعيًا إلى اتحاد الكلمة، مناديًا بالعودة إلى تعاليم السلف الصالح، ومنددًا بالفرقة وبعواقب الشقاق والتمزق الوطني[٦].

قاوم القسام، بشدة إنفاق أموال الأوقاف فى تشييد الأبنية(الفنادق)، (فندق الأوقاف بالقدس)، وتزيين المساجد، بما فى ذلك المسجد الأقصى المبارك؛ لأن إعداد الشعب للجهاد، وتسليحه لخوض المعركة، أفضل وأحق من الأمور الشكلية، خاصة أن المبالغ التى أنفقت قدِّرت بمئات الألوف من الجنيهات الإسترلينية، التى كان بالإمكان تسليح خمسة آلاف مقاتل بها، آنذاك. ومع الأسف، لم يؤخذ بهذا الرأى فى إنفاق الأموال(٧).

لقد كان القسام قائدًا مخلصًا، وعالمًا مفكرًا، وإنسانًا رحيمًا، لم يقف، لحظة واحدة، جامدًا أمام الغزو الصهيونى، الذى زرعته بريطانيا، فكان القسام يخطب من على منبر «جامع الاستقلال»، مراقبًا للمصلين، داعيًا من توسم فيه الخير والاستعداد، إلى زيارته فى منزله، وتتكرر الزيارات، حتى يقنعه القسام بالعمل لإنقاذ فلسطين، مما يهددها من خطر، ضمن مجموعات سرية صغيرة، لا تزيد عن خمسة أشخاص، ويقود كل مجموعة نقيب، فيما تولى قيادة التنظيم قيادة خماسية، على رأسهم الشيخ القسام نفسه، أما الأربعة الآخرون فى قيادة التنظيم، فهم: العبد قاسم (فلاح، بائع جاز فى حيفا)؛ محمود زعرورة (فلاح، بائع جاز فى حيفا)؛ محمد صالح(فلاح، كانت لديه كارة أو طُنبر)، أبو إبراهيم الكبير(فلاح، صاحب دكان لبيع الصوف والأكياس)(٩).

عناصر تنظيم القسام

هكذا، نجد أن القسام اعتمد ،أساسًا، على العمال والفلاحين فى تنظيمه، ذلك أنهم الأكبر أهلية فى الكفاح الوطنى، بسبب وقوعهم، أكثر من غيرهم، من الطبقات والفئات الاجتماعية الفلسطينية، تحت ضغوط مثلث ضخم، أولها من الانتداب، وثانيها من الصهيونية، وإذا كان ضغطا الانتداب والصهيونية ينتميان إلى الضغط الوطنى، فإن الضغط الثالث هو طبقى الطابع، من أصحاب العمل، وكبار الملاك الزراعيين العرب الفلسطينيين. لذا فالعمال والفلاحون كانوا الأكثر سخطًا على عدو الأمة، وهم الأشد استعدادًا للتضحية، حيث لن يخسروا إلا قيودهم، ومصادر قهرهم المثلثة.

باستقراء أسماء عناصر تنظيم القسام، تبين لنا أن معظمهم كانوا رجال دين وفلاحين؛ مما يؤكد أن الدين كان ضمير حركة القسام، وأنها كانت حركة فلاحية، فى جوهرها. فقد عبَّرت الحركة القسامية عن امتزاج الدين بالوطنية، والتحام المثقف بالشعب، وهما سمتان سادتا فى المستعمرات، خاصة تلك التى كانت علاقات الإنتاج فيها لم تصل بعد إلى المرحلة

الرأسمالية؛ وفى مثل هذه الحالة، لعب الدين دورًا تقدميًا، نلحظه فى الحركة الوطنية الجزائرية، إبان الاحتلال الفرنسى للجزائر، وقبلها فى حركة القسام[١٠].

بالإضافة إلى الفلاحين المقيمين والمطرودين، اعتمد القسام على العمال، حيث كان يقيم معظمهم فى أكواخ من الصفيح الصدئ، فى أطراف حيفا، يعانون من التخلف، والبطالة، وانخفاض الأجور، وغياب التأمينات، والحرمان من التنظيم النقابى، فى حين كان العامل الصهيونى يتمتع بالثقافة، والأجور العالية، وحرية التنظيم النقابى، والضمانات، التى كانت تحميه من البطالة والمرض[١١].

لم ينتقل الشيخ من سكنه، فى الحى القديم بحيفا، حيث كان يقطن هناك معدمو الفلاحين، الذين نزحوا من قراهم إلى المدينة، واضطروا إلى العيش فى ذلك المستوى المنخفض من الحياة (منازلهم كانت عبارة عن عشش من الصفيح)، بسبب تدفق الهجرة اليهودية، وسرعان ما أصبح فلاحو المنطقة الشمالية وعمالها يكنُّون للقسام أبلغ الاحترام والمودة، بفضل زياراته المتكررة لهم، واهتمامه الأصيل بتحسين أحوال معيشتهم، ومكافحته الأمية فى صفوفهم، عدا ما اتسم به من أصالة فى الخلق والتقوى[١٢].

الخلايا السرية والتنظيم

بدأ القسام بالحلقة الرئيسية: التنظيم؛ فشرع فى بناء الخلايا السرية، بعد ثلاث سنوات قضاها فى المسح والتقدير، وجعل من شمال فلسطين مسرحًا لنشاطه السياسى، وهى المنطقة التى كانت تموج بالسخط والنقمة، ولهيب الروح الثورية ضد أعداء الأمة ، الإنجليز والصهاينة، بعد أن كان قد تحول معظم الفلاحين المعدمين إلى عمال صناعيين، أو عمال زراعيين، فى حين عانى من لم تُنتزع منه أرضه من الارتفاع الفاحش للضريبة، مقابل الانخفاض الشديد والمتعمد فى أسعار المحاصيل، التى ينتجها الفلاح العربي[١٣]. وحسب أحد رفاق القسام فقد استمر الشيخ فى جهاده السرى لانتقاء العناصر النشطة الفعالة، والقادرة على العمل، وقد اتسعت الحلقات السرية، فى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، من خمسة أفراد، لتضم كل منها تسعة أفراد[١٤].

أما تجنيد الأعضاء فكان يتم عن طريق وضع المرشح لعضوية التنظيم، فترة من الزمن، تحت المراقبة، والتدريب. وقد نجح التنظيم فى تجنيد معظم أولئك الذين كانوا يقومون

بأعمال ثورية، أثناء المظاهرات، والإضرابات، والهبّات الثورية، أى أن التنظيم ضم إلى صفوفه العناصر الطليعية من الشعب، مما طبعه بالحديدية والسرية، فترة ليست بالقصيرة. وقد قُسِّم التنظيم إلى خلايا سرية، ضمت كل منها - كما عرفنا سابقًا - خمسة أعضاء، كحد أعلى، يقود كل خلية نقيب، ويدفع الأعضاء اشتراكاتهم المالية المقررة، التى وصلت إلى عُشر الدخل الشهرى للعضو، لتغطية التزامات التنظيم(١٥).

ثمة ما يرجح أن القسام أقام قسمًا للنساء فى تنظيمه السرى. وإن أكد البعض أن هذا القسم قد توقف عن النشاط بعد استشهاد القسام. وذكر معاصرون أسماء: فاطمة غزال، ورقية حورى ضمن أعضاء قسم النساء(١٦).

فيما اعتمد القسام خطًّا تنظيميًّا، قوامه «التنظيم السرى الطليعي»، وبناء الكوادر السياسية والعسكرية؛ وخطًّا سياسيًّا، اعتبر الاستعمار البريطانى العدو الرئيسى، وتعامل مع الصهيونية كعميلة وتابعة لهذا الاستعمار. أما أسلوب النضال، فكان الكفاح المسلح، وكان الأعضاء يحصِّلون مهارات سياسية وعسكرية تمثلت فى ثقافة سياسية، ودينية، وتدريب عسكري(١٧). ورُوى أن القسام جنَّد نحو ٢٠٠ عنصر، ونظم نحو ٨٠٠ من الأنصار(١٨).

بدأ القسام تأسيس الخلايا السرية، منذ عام ١٩٢٥، على نمط حلقات الأرقم بن أبى الأرقم، فاختار القسام الشكل العنقودى للتنظيم، دون الهرمى، فالأول أكثر ملاءمة لتنظيم شديد السرية، من التنظيم الهرمى.

من خطوات القسام التنظيمية العسكرية تقسيم إخوانه إلى عدة وحدات عسكرية منظَّمة، منها وحدة خاصة بشراء السلاح، ومن قادتها البارزين: الشيخ حسن الباير، والشيخ نمر السعدى. ووحدة للتدريب العسكرى، التى أشرف عليها ضباط ممن خدموا فى الجيش العثماني؛ ووحدة ثالثة لاستكشاف الأمور عن الصهاينة والإنجليز، لمعرفة خططهم السرية، ومن أفرادها: الشيخ ناجى أبو زيد، بالاستعانة بعدد من العمال الذين كانوا يشتغلون فى المصالح الحكومية، وخاصة دوائر البوليس، وقسم منهم عمل مع الصهاينة لمعرفة النشاط السرى للأحزاب الصهيونية؛ ووحدة رابعة من رجال الدين، وعملها الدعاية للثورة فى المساجد والتجمعات، فيما كانت الوحدة الخامسة للاتصالات السياسية والخارجية، ومن أفرادها الشيخ محمود سالم المخزومى، الذى تردد أنه اتصل بقنصل إيطاليا فى القدس، أثناء الغزو الإيطالى للحبشة، صيف ١٩٣٥، وبقنصل تركيا، بقصد شراء أسلحة حديثة(١٩).

عندما أوكل القسام أمر قيادة التنظيم لتلك الوحدات أو اللجان القيادية الخمس ضمن لتنظيمه أداءً يليق بحركة وطنية تواجه عدوًّا مزدوجًا شرسًا، فتوزعت مهام التنظيم السرى على نحو تُشكل جميعًا كلًّا متناغمًا.

انشقاق أم تمايز؟! وعمليات متواصلة

أثناء هبَّة البراق (آب/ أغسطس ١٩٢٩) طلب بعض أعضاء التنظيم إعلان الثورة المسلحة، فرفض القسام، معللًا ذلك الرفض، بأن الأزمة الثورية لم تكن قد نضجت، بعد، وأن الإعداد للثورة لم يكن قد اكتمل، كما لم يكن التنظيم قد حقق توسعًا كافيًا. ثم عاد الأعضاء أنفسهم، واقترحوا التوسع فى جمع المال من الشعب، وبشتى الوسائل، إلا أن القسام حذَّرهم من استعمال العنف مع الجماهير، لأن هذا العنف سيعزل التنظيم عن الجماهير، كما أوضح الشيخ أن الشعب «سيدفع تبرعات كافية للثورة بعد إعلانها مباشرة، وبعد أن يعرف أهداف الثورة، ويشاهد الانتصارات». وأكد هذان الموقفان مدى بُعد نظر القسام، وتمتعه بالأناة والصبر الثوريين[٢٠].

فيما أفاد أحد رفاق الشيخ القسام (أبو إبراهيم الكبير)(*) بأن «حادث البُراق دفع بنا إلى الانتقال من مرحلة الدعوة إلى مرحلة العمل». وأضاف الكبير: «اشترينا بندقية، وأحضرنا مدربًا كان اسمه محمد أبو العيون، وكانت تبدأ الجلسة بأن يلقى الشيخ دروسه، ثم تحولت دروس الشيخ من دروس دينية إلى تحريض على الجهاد. وكان المدرب يقوم، فى آخر الجلسة، بتدريب الموجودين على البندقية، واحدًا واحدًا»[١٢]. كما أكد أبو إبراهيم الكبير، فى حديثه أنه كان يعمل مع القسام، حتى حادثة نهلال (١٩٣٣)، وأنه «لم يحدث انشقاق على الإطلاق بين القائد الشهيد وإخوانه، فى عام ١٩٢٩، بل كان الوفاق على أتمه. والانشقاق بمفهومه لم يحدث لا فى حياة القائد الشهيد، ولا بعد استشهاده... والذى حدث بالفعل كان خلافًا بسيطًا على توقيت إعلان الثورة، فى أوائل عام ١٩٣٥»[٢١].

(*) تؤكد بعض المصادر العربية حدوث انشقاق داخل حلقات القسام؛ إذ انشق عدد من إخوان القسام، وعلى رأسهم أبو إبراهيم الكبير.
انظر: صبحى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥.
الكيالى، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢.

بعد أن شاركت جماعة القسام فى هبَّة البُراق بدأت، منذ عام ١٩٣٠، فى اغتيال ضباط إنجليز، ومهاجمة السكك الحديدية، وفى ٥/ ٤/ ١٩٣١ قامت فرقة قسامية بمهاجمة حافلة، فى مستعمرة الياجور، كانت تحمل شبانًا يهودًا، فقتلوا منهم ثلاثة، وأعلنت حكومة الانتداب مكافأة قدرها أربعمائة جنيه لمن يدل على القتلة، إلا أن حكومة الانتداب لم تستطع القبض عليهم. وفى ٧/ ٤/ ١٩٣١ قام القساميون بإطلاق النار على مستوطن من مستعمرة نهلال فأصابوه بساقه، ثم قاموا بمهاجمة مستعمرة عتليت، وأصابوا وقتلوا عددًا من المستوطنين الصهاينة، وتكرر الهجوم على المستعمرات. أما أول عملية كبيرة مذكورة، فهى الهجوم على مستعمرة نهلال ، على هامش انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٣، وقتل مدير أحد السجون (يوسف يعقوبي)، وابنه، وأعلنت الحكومة الإنجليزية مكافأة قدرها خمسمائة جنيه لمن يدلى بمعلومات. وقد سيَّر القساميون قطيعًا من الغنم على الطريق إلى المستعمرة، فضاع الأثر. وفى حزيران/ يونيو١٩٣٣، وأثناء مداهمة الشرطة قرية صفوريا، عثرت فى بيت مصطفى على الأحمد على قنبلة مماثلة لتلك المستخدمة فى الهجوم الأخير، حيث اعتقل هو وأحمد الغلاييني(صانع القنبلة)(*)، وخليل محمد عيسى، وكانت تلك المحاكمة الأولى للقساميين،وقد حاول رجِل الأمن، الذى تعقب خطى القساميين ، انتزاع الاعترافات من المعتقلين، لكنه لم ينجح، وأعدِمَ مصطفى الأحمد، وسُجن الغلايينى، فيما بُرئ خليل محمد عيسى، وإن كانت علاقة القسام بهم قد ظهرت، خاصة من تردد القسام على مكتب محاميهم حنا عصفور بهدف متابعة الدفاع(٢٣).

فى عملية ثانية بارزة هاجم القساميون عربة تجرها البغال، وقُتل فى هذه الحادثة أحد عشر صهيونيًا، وقامت السلطات بقطع الطريق، بين عكا، وحيفا، والناصرة، أما منفذو العملية، فقد عبروا نهر المقطع، ووصلوا إلى بستان آل قسمان سالمين(٢٤).

من السر إلى العلن

أتى النهوض الثورى الذى شمل البلاد (١٩٣٠- ١٩٣٩)، تعبيرًا عن نمو الطبقات

(*) عندما تمكن الغلايينى من صنع قنبلتين فى معمله بحيفا، أعطاهما إلى الحاج صالح أحمد طه، وكان لدى طه ثلاث بنادق حربية، استلمها لنفسه ولإخوانه من القسام. فكان يذهب فى بعض الليالى إلى مستعمرات الصهيونية، مع الشيخ أحمد التوبة والشهيد الأحمد، ويطلق النار على من يجد من الصهاينة. وعند صنع القنبلتين، وضعوا الأولى فى مسكن أربعة حراس صهاينة فى مستعمرة نهلال، الواقعة بين حيفا والناصرة، قرب قرية المجدل، فقتلت صهيونيين، وجُرح آخرون، وظلت الثانية فى بيت الأحمد على النحو المبين أعلاه.

الجديدة: البرجوازية بفئاتها؛ والعمال فى إطار تفاقم الأزمة الاقتصادية العالمية(١٩٢٩ - ١٩٣٢) وتصاعد المد الثورى فى العالم. ومن جهة أُخرى كان ذلك النهوض الثورى رد فعل لتزايد عمليات طرد الفلاحين من أراضيهم، ولإجراءات حكومة الانتداب البريطانى، وموقفها، إذ استمرت فى تأييدها لمشروع «الوطن القومى اليهودي» وسهَّلت الهجرة اليهودية، كما أمعن الانتداب فى تشويه النمو الاقتصادى، وانعكس كل هذا على المجال السياسى، وأدى إلى إحداث تمايز تمثل فى تبنى كبار الملاك للاتجاه الدينى، وتبنى العناصر البرجوازية للاتجاه القومى الليبرالي[٢٥].

بحلول عام ١٩٣٥، شعر القسام بحسه الثورى المرهف، أن الظروف قد نضجت، بما يتيح له خوض غمار الكفاح المسلح ضد الانتداب والصهيونية[٢٦]:

- **انقسام قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية** على نفسها، واختلافها فى كل شيء، إلا فى التقرب من سلطات الانتداب.
- **افتضاح أمر هذه القيادات** لدى قطاعات غير يسيرة من الشعب، واقتناع تلك القطاعات بعدم جدوى الأساليب السلبية فى الكفاح؛ مما زاد من استعداد الجماهير للتحرك فى خط الكفاح المسلح.
- **اتساع تنظيم القسام** وانتشاره(*).
- **حصول القسام على السلاح** اللازم لحركته، وتخزينه فى قريته «جبلة». ومنذ أوائل عام ١٩٣٥، شهد المثلث العربي(جنين- نابلس- طولكرم) سيلًا من الاغتيالات للضباط الإنجليز، والمشتبه فى تعاونهم من بين العرب مع سلطات الاحتلال، أو الصهيونيين[٢٩].

تضافرت كل هذه الشروط، فضلًا على اتساع دائرة العمال العرب الفلسطينيين العاطلين، والاستفزازات الصهيونية، كالتدريب العسكرى السافر؛ ومهاجمة الفاشيين الصهاينة من أتباع المتطرف فلاديمير جابوتنسكى للقرى العربية؛ واكتشاف شحنات كبيرة من

(*) روى أحد القساميين أن التنظيم ضم نحو مائتى عضو[٢٧]، فى حين ذكر دروزة أنهم كانوا فى حدود الخمسين عضوًا[٢٨].

الأسلحة المهربة للصهاينة(*)، مقابل تساهل السياسيين العرب الفلسطينيين نحو حكومة الانتداب.

قرر القسام القيام بأعمال الجهاد علانية؛ لرفع معنويات عرب فلسطين، وإبرازًا للأهداف التى كانوا يجاهدون فى سبيل تحقيقها، وإحباطًا للدعاية المعادية، التى حاولت إظهار أعمال القساميين على أنها أعمال إجرامية، وأنهم مجرد عصابة للسلب والنهب[٣١].

كان القسام قد سارع إلى رأس الحركة الوطنية، آنذاك، الحاج أمين الحسينى، طالبًا منه تعيينه واعظًا عامًّا متنقلًا، لتيسير تنقلاته وسترها؛ للحض على الثورة فى أرجاء فلسطين، غير أن الحسينى اعتذر عن عدم تلبية رغبة القسام، بدعوى أنه- أى الحسيني- يعمل لحل القضية سياسيًّا! وعاد القسام إلى حيفا، وعندما اقتربت ساعة الصفر(أوائل ١٩٣٥)، أرسل القسام أحد مساعديه (محمود سالم المخزومي)، إلى الحسينى، طالبًا منه إعلان الثورة فى الجنوب، فى الوقت الذى يعلنها القسام فى الشمال، وفعلًا اتصل المخزومى بالحسينى، بواسطة أحد مساعديه، وهو الشيخ موسى العزراوى، ونقل إليه رغبة الشيخ القسام، فأجاب الحسينى، بواسطة العزراوى، بأن الوقت لم يحن، بعد، لمثل هذا العمل، وأن الجهود السياسية التى تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقوقهم! إذ كان الحسينى حَسَن الظن بالإنجليز[٣٢]. والغريب فى الأمر ، أن الحسينى لم يشر، ولو بكلمة واحدة، إلى الشيخ القسام وحركته فى كتابه «حقائق عن قضية فلسطين»، الذى طبع عدة مرات فى خمسينيات القرن العشرين[٣٣].

عودة القسام هنا إلى مفتى القدس أتت لوعى الأول بأن المفتى كان يستقطب حوله الكتلة الرئيسية من جماهير فلسطين، كما أن المفتى، فى نهاية الأمر وطنى، معادٍ للاستعمار والصهيونية[٣٤].

آثر القسام، بعد فشله فى اجتذاب المفتى، أن يفجِّر الثورة المسلحة بدونه وقرر البدء بالثورة فى الأرض الجبلية، وعقد آخر اجتماع فى مدينة حيفا ، مركز الثورة الرئيسى، فى منزل المخزومى، ليلة ١٢/ ١١/ ١٩٣٥، وباع أصحاب القسام حلى زوجاتهم، وبعض أثاثهم، واشتروا بثمنها رصاصًا وبنادق ثم قصدوا جبال يعبد القريبة من حيفا ومن مرسى الأسطول البريطانى، ومعسكرات الإنجليز، غير عابئين بقوة بريطانيا المسلحة. وروى أحد

(*) فى ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٣٥ سقط برميل إسمنت فى ميناء يافا، فاتضح أنه ملىء بالأسلحة ضمن ٧٥ برميلًا باسم الصهاينة فى تل أبيب، فوجد القسام فى هذه الحادثة « اللحظة الثورية» المناسبة لإعلان الثورة المسلحة.

قادة «حزب الاستقلال» بأن عدد الذين خرجوا مع القسام كانوا عشرة، وأنهم دعوا إخوانهم الباقين للانضمام إليهم، وكان مع كل واحد منهم بندقية، ومبلغ ضئيل من المال يقيم به أوده. وقد روى أهالى قرية يعبد ـ حيث كان القسام يرابط بجماعته على مقربة منها ـ أنهم لم يسألوهم، أو يطلبوا منهم شيئًا بل كانوا فى النهار يأوون إلى كهوفهم، ويصلون، ويقرؤون القرآن، وفى الليل يخرجون إلى القتال(٣٥).

أكدت مصادر أُخرى أن عدد رفاق القسام، الذين خرجوا معه إلى قضاء جنين بلغ ٢٤ (وهو العدد الأقرب إلى الصواب)؛ وذلك للحض على الثورة، وتدريب الفلاحين، وتشكيل ما يُعرف منذ ستينيات القرن العشرين اسم «البؤرة الثورية». وقد اختار القسام قضاء جنين، لوقوعه فى جبال الجليل الوعرة، ذات المواصلات الصعبة، مما يعرقل مواجهة سلطات الانتداب له، فيما كان القسام بنى تنظيمه فى حيفا، المدينة الأكثر تعليمًا، والأشد كثافة، واستعدادًا للتنظيم منهم فى الريف، وحيث القبلية، والطائفية، والإقليمية شبه محطَّمة، وحيث الصراع السياسى أكثر وضوحًا، واحتدامًا. ثم انتقل القسام إلى الريف، بمجرد عزمه على إشعال فتيل الثورة، ودل هذا على مدى حكمته، وبُعد نظره، فالرِّيف هو المكان الذى تضعف فيه قبضة السلطة الاستعمارية، ويتوفر الأمان فى بطون الجبال، وأعماق الغابات للطلائع والعصابات المسلحة(٣٦).

اكتشاف أمر القسام واستشهاده

أول قرية دخلها القسام، بعد خروجه من حيفا، ليلة ١٢/ ١١/ ١٩٣٥ هى كفر دان، ومنها أرسل من إخوانه إلى قرى يعبد، وعرابة، وفقعوعة، وصندلة، وقباطية، ليشرحوا أهداف الثورة الوطنية، وكانت الرصاصة الأولى للثورة فى ١٤ من الشهر نفسه، حيث قتل القسامى محمود سالم، شرطيًا صهيونيًا، من مستعمرة عين حارود، ويسَّر ذلك الحادث اكتشاف أمر القسام ورجاله، خاصة بعد اختفائه من «مسجد الاستقلال» بحيفا، لذلك أعلنت سلطات الانتداب عن مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يدلها على القسام. وانقسمت قوات القسام إلى مجموعتين، أولاهما مع فرحان السعدى، وقد اتجهت إلى نورس، عند طريق حيفا-الناصرة، وقامت هذه المجموعة بتخريب المواصلات الإنجليزية، أما المجموعة الثانية فكانت مع القسام ووصلت إلى يعبد التى كانت مطوَّقة بالقوات البريطانية. وذكر عضو جماعة القسام،

عربى بدوى أنه رأى شخصًا فى المكان، فطلب من القسام القبض عليه، لكنه رفض، وكان ذلك الشخص جاسوسًا دل الإنجليز على القسام ورفاقه[٣٧].

كانت حادثة عين حارود، الأولى التى كشفت عن مركز القيادة القسامية، وفى صباح ١٩/ ١١/ ١٩٣٥ تحركت قوات كبيرة من البوليس البريطانى، إلى قضاء جنين، وطوَّقت قرى يعبد، وبرقين، وكفر دان، وفقوعة بقصد القضاء على الثورة، وقادتها، وهى فى المهد، وكان عدد القوات البريطانية المهاجمة بين ٤٠٠-٦٠٠، أى أن كل مجاهد قاتل نحو أربعين جنديًا، وجعل البريطانيون فى مقدمتهم الجنود العرب، وكان قتالًا انتحاريًا، بالنسبة للقسام وإخوانه، لكنه أفضل، على كل حال، من الاستسلام. واستمرت المعركة من الصباح حتى الظهر (نحو ست ساعات)، وقتل من الإنجليز نحو ١٥ جنديًا، ولكنهم اعترفوا باثنين فقط، فيما استشهد الشيخ القسام، ومحمد حنفى أحمد (المصري)، ويوسف الزيباوى، واعتقل خمسة من رفاق القسام، واضطر الآخرون إلى الاختفاء فى الجبال، لإتمام رسالة القسام الثورية المقدسة فى الوقت المناسب. وقد كان للعالم الشيخ كامل القصَّاب وزملائه دور بارز فى استلام زمام المبادرة بعد القسام[٣٨].

كان القسام قد رفض الاستسلام، أثناء المعركة التى استشهد فيها، وأجاب «إننا لن نستسلم، إن هذا جهاد فى سبيل الله والوطن». والتفت إلى زملائه قائلًا: «موتوا شهداء»! وحين رأى فى القوى المحاصرة عددًا من الجنود العرب، صاح فى رجاله: «إياكم ومقابلة رصاص الجنود العرب بمثله، ولكن عليكم بالإنجليز فاجعلوهم هدف رصاصكم»[٣٩].

لعبت حركة القسام دورًا بارزًا فى التاريخ الوطنى الفلسطينى، عامة كما ألقت ظلًا كبيرًا على المسرح السياسى الفلسطينى خاصة. وأصبح القسام ورفاقه رمزًا للتضحية والفداء، فنظر الرأى العام العربى الفلسطينى إليهم نظرة تقدير بالغ؛ مما أدى إلى ظهور كتل سياسية من الشباب بقيادات ثورية جديدة.

دروس الحركة[٤٠]

١ـ خلا تنظيم القسام من الملامح الرجعية لبعض الاتجاهات الوطنية، آنذاك، والتى خلطت بين الصهيونية واليهودية، وتجاهلت العدو الرئيسى.

٢ـ كان التنظيم كالومضة، فى قوة وهجها، وسرعة خبوئها، إلا أنها كانت عميقة الدلالة، فهى المبادرة الأولى لخوض الكفاح المسلح، بشكل منظَّم، والمرة الأولى التى تم فيها تحرك ثورى بمعزل عن القيادة التقليدية للحركة الوطنية، وفى هذا تكمن أهميتها.

٣ـ حفز التنظيم الجماهير لمضاعفة النضال، وأبان لها الطريق، رغم أن التنظيم لم يحقق أهدافه.

٤ـ كشف التنظيم القسامى مدى خور وتردد قيادة الحركة الوطنية شبه الإقطاعية.

٥ـ فتح الباب أمام الجماهير لانتزاع زمام المبادرة من القادة التقليديين، فنشبت ثورة ١٩٣٦ بمبادرة شعبية خالصة، وبمعزل عن القيادة التقليدية، وإن نجحت تلك القيادة فى تطويق واحتواء الثورة فى وقت لاحق.

٦ـ أصابت ضربة الاستعمار القاصمة التنظيم القسامى، فلم يأخذ فرصته زمنيًّا لتجميع الجماهير وتوضيح أهدافه.

٧ـ فرضت عدة اعتبارات أمنية على القسام وقف تنظيمه على النخبة؛ مما أدى إلى ضيق حجم التنظيم.

٨ـ حصر القسام نشاطه السياسى، والتنظيمى، فى منطقة واحدة (شمال فلسطين)، فكان الخطأ العسكرى الرئيسى الذى وقع فيه القسام؛ مما سهَّل على الاستعمار الإجهاز على انتفاضة القسام المسلحة فى قضاء جنين، ومنع وصول شرارتها إلى بقية المناطق ولكن إلى حين.

مهما يكن من أمر حركة القسام، فإنها كانت المقدمة، بل البداية الحقيقية لثورة ١٩٣٦، ولم تكن الأشهر الخمسة التى فصلت بينهما إلا الفرصة التى تمكن فيها رفاق القسام من التقاط أنفاسهم، ولم شملهم، ونجح تنظيم القسام هذه المرة فى تفجير الثورة التى امتدت ثلاث سنوات متصلة، سطَّر فيها الشعب العربى الفلسطينى أروع آيات التضحية ، والبطولة، والفداء فى تاريخ العرب الوطني[٤١].

وبعد، فإن التنظيم الجديد للثورة هو الأساس للكفاح المسلح الهادف، كما أن الدين ـ لعب ولا يزال يلعب ـ دورًا غير هيِّن فى تاريخ المقاومة ومن ثم فلا مفر من توظيف البعد الدينى فى التعبئة والمعنويات حتى تكتمل عناصر انتصار المقاومة.

هوامش الفصل الرابع

(١) خير الدين الزركلى، **الأعلام**، دمشق، ١٩٥٦، ج٧، ص١٤٩.

(٢) عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ - ١٩٣٦**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٢٩٤.

(٣) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨**، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، أيار/ مايو ١٩٧٥،ص١٤٩.

(٤) من حديث لأبى إبراهيم الكبير في: **الثورة الفلسطينية**(دمشق)، العدد ١٩، ١٥/٩/١٩٦٩، ص٢٤.

(٥) للمزيد انظر:

- ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٩-١٥٠؛
- د.محمود كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطانى ١٩٢٢-١٩٣٩**، ط٢،طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢،ص٥٨٣-٥٨٤؛
- غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٩٤.

(٦) للمزيد انظر:

- صبحى ياسين، **الثورة العربية الكبرى فى فلسطين١٩٣٦-١٩٣٩**، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص٣٠-٣١؛
- عمر أبو النصر؛ أمين عقل؛ إبراهيم نجم، **جهاد فلسطين العربية**،ط١، يافا، ١٩٣٦، ص٢٧٠-٢٧١.

(٧) صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٢-٣٣.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٣١.

(٩) من حديث...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥-٢٦.

(١٠) عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٢.

(١١) **المصدر نفسه**، ص١٤٩-١٥٠.

(١٢) عبد الوهاب الكيالى، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، نوفمبر، ١٩٧٠، ص٢٩٣.

(١٣) عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٩-١٥٠.

(١٤) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٨٥.

(١٥) عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥١- ١٥٢.

(١٦) لمزيد من التفاصيل فى هذا الصدد يمكن الرجوع إلى:

فيحاء عبد الهادى، **دور المرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات/ المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية**، رام الله، مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتطبيق،د.ت.، ص٢٢-٢٧، ١٤٥- ٤٥٤.

(١٧) عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ١٥٢.

(١٨) الكيالى، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٩٣.

(١٩) صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٤؛ عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥١.

(٢٠) انظر:

- صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٥.
- عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٣.

(٢١) من حديث...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٤.

(٢٢) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٨٦.

(٢٣) للمزيد انظر:

- صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٧-٣٨.
- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٨٨.

(٢٤) بيان نويهض الحوت، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام فى تاريخ فلسطين**، ط١، بيروت، دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧،ص٥٦.

(٢٥) عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٣-١١٤.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص١٥٣-١٥٤.

- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٩٦.

(٢٧) صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٤.

(٢٨) محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة**، الجزء الثالث، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٥١، ص١٢٠.

(٢٩) صالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، بيروت، دار الفتح، ١٩٦٨، ص١٧٧.

(٣٠) الكيالى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٤- ٢٩٥.

(٣١) إميل الغورى، **المؤامرة الكبرى، اغتيال فلسطين ومحق العرب**، القاهرة، ١٩٥٥، ص٧٦، ٧٧.
ـ غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٣-٢٩٥.

(٣٢) صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٢.

(٣٣) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٩٠.

(٣٤) للمزيد انظر:

ـ **المصدر نفسه**، ص٥٨٨-٥٨٩؛

ـ عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٤-١٥٥.

(٣٥) للمزيد، انظر:

ـ صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٢.

ـ غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٩٥.

ـ دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٦.

(٣٦) عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٥-١٥٦.

(٣٧) للمزيد انظر:

ـ صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٨-٣٩.

ـ على حسين خلف، **تجربة عز الدين القسام السورية، شؤون فلسطينية**، (بيروت)، العدد ١٢٤، آذار/ مارس ١٩٨٢، ص١٧-٣٥.

(٣٨) للمزيد انظر:

ـ خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٩٣- ٥٩٤ (أسماء الشهداء والجرحى).

ـ صبحى ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٩-٤١.

ـ غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٦- ٢٩٧.

(٣٩) انظر:

ـ **المصدر نفسه**، ص٢٩٦؛

ـ دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٦؛

ـ ناجى علوش، **المقاومة العربية فى فلسطين المحتلة، منظمة التحرير الفلسطينية**، مراكز الأبحاث، ١٩٦٧، ص١٠٣.

(٤٠) عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٧-١٥٩.

(٤١) **المصدر نفسه**، ص١٥٩.